طبيعة الأخلاق بين الفطرية والاكتساب ومدى قابليتها للتغيير

د. أحمد قوشتي عبد الرحيم*

سلم البحث في ١٤٤٣/٢/٧هـ بسم الله الرحمن الرحيم اعتمد للنشر في ١٤٤٣/٣/٩هـ

ملخص البحث:

لعله لا يخفى أهمية الأخلاق للفرد والمجتمع، وحاجة الإنسان الماسة إليها لتحقيق سعادته وطمأنينة نفسه، وضبط تعاملاته مع كل من يحيط به في هذا العالم، ولا أظننا نبالغ إذا قلنا إن الإنسان كائن أخلاقي، وإذا غابت عنه الأخلاق بالكلية فلن نجد كبير فرق بينه وبين حيوانات الغابة التي لا تسيرها سوى الغرائز والرغبات الحسية. وقد اخترنا في هذا البحث قضية مهمة ومحددة من القضايا المتعلقة بعلم الأخلاق، ولها أثر كبير على الفرد والمجتمع، ألا وهي النظر في طبيعة الأخلاق، وهل هي فطرية أم مكتسبة، ثم ما يترتب على ذلك من التساؤل عن مدى قابليتها للتغيير والتعديل، والتخلص من الأخلاق القبيحة واكتساب الأخلاق الحسنة، وهل ذلك كله ممكن أم مستحيل ؟

وقد جاء البحث في مطلبين، عرض أولهما لمفهوم الأخلاق لغة واصطلاحا، ثم تناول وظيفة الأخلاق وموقف المدارس الفكرية المختلفة من تلك القضية، لما للمفهوم وتحريره وتحديد طبيعة الأخلاق ووظيفتها من أهمية كبيرة في النظر إلى الفعل الأخلاقي، ومدى قابليته للتغيير. ثم عرض المطلب الثاني للقضية محل البحث، وهي طبيعة الأخلاق، وهل هي فطرية أم مكتسبة، ثم ما يترتب على ذلك من قدرة الإنسان على تغييرها، أم أن ذلك غير ممكن، وكل من جبل على خلق ما فلا انفكاك له منه بأي حال من الأحوال ؟.

Abstract:

Perhaps it is no secret of the importance of morality for the individual and society, and of man's urgent need to achieve his happiness and reassurance of himself, and to control his dealings with everyone around him in this world, and I don't think we exaggerate if we say that man is a moral being, and if morals in college are absent from him and the animals of the forest that are driven only by instincts and sensory desires. In this research, we have chosen an important and specific issue of ethics, which has a significant impact on the individual and society, namely, to consider the nature of morality, whether it is innate or acquired, and then the consequent question of its susceptibility to change and modify, to get rid of ugly morality and to acquire good morals, and is it possible or impossible?

The research came in two demands, the first of which presented the concept

* الأستاذ بقسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.

of ethics in language and terminology, and then dealt with the function of ethics and the attitude of different schools of thought on that issue, because the concept, liberalization and determination of the nature and function of ethics are of great importance in view of the moral act, and its susceptibility to change. Then he presented the second requirement of the issue in question, namely the nature of morality, is it innate or acquired, and then the consequent ability of man to change it, or is that not possible, and everyone who is mounted to create an indefinite from it in any way?

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، وبعد: فلا يخفى أهمية الأخلاق للفرد والمجتمع، وحاجة الإنسان الماسة إليها لتحقيق سعادته وطمأنينة نفسه، وضبط تعاملاته مع كل من يحيط به في هذا العالم، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الإنسان كائن أخلاقي، وإذا غابت عنه الأخلاق بالكلية فلن نجد كبير فرق بينه وبين حيوانات الغابة التي لا تسيرها سوى الغرائز والرغبات الحسية.

ولعلنا لسنا بحاجة إلى أن نطيل في بيان أهمية الأخلاق ومكانتها والحث الدائم عليها في دين الإسلام، وفي نصوص الوحيين من القرآن والسنة، فكل قارئ لكتاب الله ومطلع على سنة رسول الله ﷺ يدرك بجلاء أن الجانب الأخلاقي له مكانته الكبرى في ميزان الإسلام؛ وأنه ركن أصيل وجوهري في بنيان هذا الدين، وكل من يتأمل دعوة الإسلام يجد العنصر الأخلاقي حاضرا أصيلاً فيها تقوم عليه أصولها العقدية والتشريعية والتهذيبية، فالمعنى الأخلاقي كامن في عقائد الإسلام وتشريعاته كلها، ففي جانب العقائد نجد أنها ذات صلة وثيقة بالأخلاق، وأن غيابها مؤذن بضعف الإيمان أو زواله[1] كما قال ﷺ: "لا إيمان لمن لا أمانة له"[2] وقال ﷺ: "من غشنا فليس منا"[3] وأما من يؤذي جيرانه ويسيء معاملتهم ولا يأمنون جانبه فقد قال عنه ﷺ: "والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن قيل: ومن يا رسول الله؟ قال: "الذي لا يأمن جاره بوائقه"[4]

ويظهر لنا مدى هذه العلاقة الوثيقة بين العقيدة والأخلاق[5] أيضا إذا علمنا أن الإيمان بالله ربا وخالقا وإلها، ومعرفته بأسمائه الحسنى كالعليم والخبير والرقيب والحسيب والحفيظ والمحيط يوجب على العبد مراقبة الله وخشيته والحياء منه، والتحلي بمحاسن الأخلاق واجتناب رذائلها، والإيمان بالملائكة وكتابتهم لأعمال العبد يقتضي الحياء من الإتيان بما لا يليق بهؤلاء الكرام البررة، والإيمان باليوم الآخر يرسخ في قلب العبد أن هناك جزاء وحسابا، وأنه من الممتنع أن يكون

المسلمون كالمجرمين ــ والمتقون كالفجار.

وفي جانب العبادات والمعاملات نجد أنه ما من عبادة يتقرب بها المسلم إلى الله إلا وزينت واقترنت بأخلاق فاضلة ونهي فيها عن أخلاق مرذولة، وكذلك الحال في المعاملات والعادات٦ ففي الصلاة أخبر الله تعالى: أنها ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت: ٤٥) وقال ﷺ "إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة"[٧] وفي الزكاة قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ (سورة التوبة:١٠٣) وقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ (سورة البقرة:٢٦٣) وفي الصوم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (سورة البقرة:١٨٣) وفي الحج قال تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ (سورة البقرة:١٩٧)

وفي العلاقات الزوجية قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (سورة النساء: ١٩) وقال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (سورة البقرة:٢٣٧) وفي البيوع والمعاملات المالية قال النبي ﷺ: "رحم الله عبدا سمحا إذا باع، سمحا إذا اشترى، سمحا إذا اقتضى"[٨] وفي كلمة جامعة تعم كل معاملة أمر ﷺ بالإحسان في كل شيء حتى فيما يتصور البعض أنه لا موضع له فيه وهو ذبح الحيوان ليأكل، فقال ﷺ: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء"[٩]

وخلاصة ما سبق كله هو أن من نظر نظرة متأملة ومستقصية في القرآن والسنة فسوف يجد أن "الأخلاق تسري في كل جوانب التشريعات الإسلامية، ويمكن أن نجدها في كل مجال من مجالاتها، فهي ملحوظة في الزواج والعشرة والقرابة والصحبة والجوار والبيع والشراء ومراعاة حقوق الضعفاء والمساكين واليتامى وأصحاب الحاجات" وغير ذلك الكثير[١٠].

وقد شغل الفكر البشري بالعديد من القضايا المتعلقة بالأخلاق، بل إن هناك علما كاملا أفرد لها، وخاض فيه الفلاسفة والصوفية وعلماء الاجتماع والأدباء وغيرهم، كما أن علماء الإسلام قد كتبوا مصنفات عديدة في هذا الجانب المهم.

وقد اخترنا في هذا البحث قضية مهمة ومحددة من القضايا المتعلقة بعلم الأخلاق، ولها أثر كبير على الفرد والمجتمع، ألا وهي النظر في طبيعة الأخلاق، وهل هي فطرية أم مكتسبة، ثم ما يترتب على ذلك من التساؤل عن مدى قابليتها

للتغيير والتعديل، والتخلص من الأخلاق القبيحة واكتساب الأخلاق الحسنة، وهل ذلك كله ممكن أم مستحيل ؟

وأما عن المنهج الذي سار عليه البحث فقد اقتضت طبيعة الموضوع الجمع بين أكثر من منهج، فهناك المنهج التحليلي، والمنهج المقارن بين الاتجاهات الفكرية المختلفة، والمنهج النقدي الذي لا يسلم لقول إلا إذا أيده الدليل، وقامت عليه الحجة الصحيحة.

وجل ما وقفت عليه من الدراسات السابقة المتعلقة بموضوع بحثنا تتناول الأخلاق بصفة عامة سواء من حيث التأريخ لها أو الاختصاص باتجاه فكري معين أو شخصية ما أو المقارنة بين مدارس مختلفة –وقد ذكرنا الكثير منها في قائمة المراجع– خلافا لبحثنا هذا الذي اقتصر على مسألة محددة من مسائل علم الأخلاق، وهي طبيعتها ومدى قابليتها للتغيير.

وقد جاء البحث في مطلبين، عرض أولهما لمفهوم الأخلاق لغة واصطلاحا، ثم تناول وظيفة الأخلاق وموقف المدارس الفكرية المختلفة من تلك القضية، لما للمفهوم وتحريره وتحديد طبيعة الأخلاق ووظيفتها من أهمية كبيرة في النظر إلى الفعل الأخلاقي، ومدى قابليته للتغيير.

ثم عرض المطلب الثاني للقضية محل البحث، وهي طبيعة الأخلاق، وهل هي فطرية أم مكتسبة، ثم ما يترتب على ذلك من قدرة الإنسان على تغييرها، أم أن ذلك غير ممكن، وكل من جبل على خلق ما فلا انفكاك له منه بأي حال من الأحوال ؟

المطلب الأول: مفهوم الأخلاق ووظيفتها

أ- تعريف الأخلاق لغة:

الأخلاق جمع خلق، وأصل هذه المادة يدل على معنى كلي، وهو تقدير الشيء[١١]، ويتفرع عنه عدة معان ومنها: السجية، والعادة، والطبع والطبيعة، والمروءة، والدين.والخُلُق وصف لصورة الإنسان الباطنة كما أن الخَلْق وصف لصورته الظاهرة[١٢].

وثمة علاقة وثيقة بين الخَلق والخُلُق حيث يشتركان في أصل لغوي واحد، وإن كان اللغويون قد مالوا إلى تخصيص كل واحد منهما بجانب معين، فالخَلق يتعلق بالجانب الظاهر من الإنسان، أي خلق جسمه وأعضائه، وأما الخُلُق فيتعلق بالجانب الباطني من الإنسان، أي أخلاقه وصفاته، وبينما يدرك الأول بالبصر، فإن الثاني يدرك بالبصيرة[١٣]وقد اجتمع هذان المعنيان في قوله ﷺ، لجعفر

بن أبي طالب ﷺ: "أشبهت خَلقي وخُلُقي"[١٤] وكان من دعائه ﷺ "اللهم حسنت خَلْقي فحسن خُلُقي"[١٥]

ومع أن المرء محتاج إلى إصلاح الظاهر والباطن معا –أي الخَلْق والخُلُق– إلا أن إصلاح الباطن أهم شأنا، وأخطر أثرا، وعليه المدار والمعول في الحساب والعقاب عند الله تعالى:، كما قال ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم"[١٦] وقد ذم الله سبحانه المنافقين ممن حسنت ظواهرهم، وخبثت بواطنهم، وفسدت قلوبهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المنافقون:٤) وقال سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة:٢٠٤)

ونخلص من خلال العرض اللغوي للفظة (الأخلاق) إلى أن هذا اللفظ يصدق على عدد من المعاني، فهو يدل على الصفات الطبيعية في خلقة الإنسان، والتي فطرها الله على هيئة مستقيمة متناسقة، كما يدل أيضا على الصفات التي اكتسبت وأصبحت كأنها خلقت مع طبيعته، وبذلك يتضح أن للأخلاق جانبين: أحدهما نفسي باطني، والآخر سلوكي ظاهري[١٧].

ب- تعريف الأخلاق اصطلاحا:

ثمة تعريفات كثيرة لمصطلح الأخلاق قدمها العديد من الدارسين ذوي التوجهات المختلفة من متكلمين وفلاسفة وصوفية وباحثين مُحْدَثين، وقد تنوعت تعريفاتهم تبعا للاتجاه الفكري الذي يتبناه كل واحد منهم، والذي يؤثر بالضرورة على مفهومه للأخلاق وطبيعتها ووظيفتها وغايتها.

ومن أشهر هذه التعريفات وأقدمها تعريف جالينوس المعروف بالطب والحكمة عند اليونان للخلق بأنه "حال للنفس داعية للإنسان إلى أن يفعل أفعال النفس بلا روية واختيار" وقد انتقل هذا المفهوم فيما بعد إلى الفكر الإسلامي من خلال حركة الترجمة وتأثر به الكثيرون ممن كتبوا في الفكر الأخلاقي –على اختلاف مشاربهم وتوجهاتهم الفلسفية[١٨].

ولعل بوسعنا إذا ألقينا نظرة عامة على الدراسات الأخلاقية لدى المفكرين المسلمين أن نلحظ وجود عدة اتجاهات متميزة: أولها عقلي والثاني روحي والثالث يجمع بينهما– ويبقى اتجاه رابع يمثله أصحاب التوجه السلفي مثل شيخ الإسلام ابن

تيمية وتلميذه ابن القيم وسوف ترد الإشارة إليه لاحقا- ولا شك أن هناك اختلافا في السمات والخصائص بين كل اتجاه من هذه الاتجاهات[١٩].

فالاتجاه العقلي يظهر بوضوح لدى الفلاسفة والمتكلمين ولا سيما المعتزلة، والطابع العام لديهم هو تفسير المبادئ الأخلاقية وتدعيمها بالعقل، وجعل غايتها غاية عقلية ثابتة ومقياسها الأسمى العقل والوسطية.

وأما الاتجاه العملي فيظهر بوضوح لدى الصوفية الذين ركزوا في دراستهم الأخلاقية على التحليلات النفسية الدقيقة من وصف خلجات النفس وخطرات القلب وكيفية تطهيره والسعي إلى التحلي بالفضائل والبعد عن الرذائل[٢٠].

وأما الاتجاه الثالث فلعل أبرز من يمثله أبو حامد الغزالي والذي عرف الأخلاق بتعريف يقترب كثيرا من تعريف جالينوس المذكور آنفا مع زيادة تفصيل وبيان وضرب للأمثلة، حيث عرف الأخلاق بأنها "عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويـة، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً "[٢١]

والمتأمل للتعريف السابق للأخلاق يمكنه أن يخرج بعدد من الملاحظات التي أشار إليها أبو حامد الغزالي في كتابه الإحياء، ومن أهمها[٢٢]:

أ- يشتمل الخلق على عدة عناصر، لا يتصور وجوده بدونها، وهذه العناصر هي:

١-فعل الجميل والقبيح

٢-القدرة عليهما

٣-المعرفة بهما

٤-هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين إما الحسن وإما القبيح

ب- ويترتب على هذا المفهوم أن وجود عنصر أو عنصرين فقط لا يعني أن بإمكاننا وصف فعل ما بأنه صار خلقا، لأن الخلق ليس "عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو لمانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء، وليس هو عبارة عن القوة، لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء وليس هو عبارة عن المعرفة

فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعا على وجه واحد"[٢٣]

وهكذا يتبين لنا أن حقيقة الخلق لا تقتصر على واحد من هذه المعاني بمفرده، وإنما يقصد به " الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل، فالخلق إذا عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة، وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقا لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق، فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخلق "[٢٤]

ج- ومن الشروط المهمة لاتصاف الإنسان بخلق ما أن يصل إلى مرتبة الهيئة الراسخة، بمعنى أن يستقر الخلق في النفس استقرارا تاما، لا تحس إزاءه بأدنى قدر من التردد ولا يقع نوع من الانقطاع بين هذه الهيئة الراسخة في النفس والسلوك الموافق لها، فالإنسان لا يوصف بالكرم إلا إذا كان كرمه صفة دائمة له، أما من يبذل المال على قلة أو ندرة مع توافر أسباب الكرم ودواعيه فلا يستحق أن يوصف بهذا الخلق[٢٥].

د- كذلك لا يحكم على السلوك بأنه خلق إذا صدر بتكلف شديد أو كانت النفس تعاني من مشقة شديدة في فعله كأنما تساق إليه سوقا أو تدفع إليه دفعا، لأن ذلك يشعر بعدم تمكن الخلق في النفس ويوحي بشيء من الكراهة أو الرفض له، ومن ثم نقول إن الذي يتكلف بذل المال أو يتكلف ضبط النفس عند الغضب بجهد ومشقة لا يقال إن خلقه السخاء أو الحلم[٢٦].

والسبب في ذلك هو أن الفضيلة ليست مجرد عمل آلي تمجه نفس فاعله ويأباه طبعة، بل هي عمل انبعاثي محبب إلى القلب، حتى إن الذي يفعل الخير دون أن يكون منشرحا لفعله هذا ومحبا له فكأنه لم يفعل شيئا ولن يثاب على صنيعه هذا مثقال حبة من خردل[٢٧]، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى. وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى﴾ (النجم: ٣٣،٣٤) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة:٥٤) وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ (التوبة: ٩٨)

لكن ما سبق لا يتعارض مع ما هو معروف من أن الذي يتكلف فعل الخير ويعود نفسه عليه مع وجود شيء من المشقة -بشرط أن يكون محبا له- فهو مشكور على فعله هذا، ويرجى له أن يترقى في مدارج الكمال، حتى ينتقل من

مرتبة التحلم إلى مرتبة الحلم، ومن مرتبة التصبر إلى مرتبة الصبر، كما قال ﷺ: "من يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله"[٢٨] وقال ﷺ: "إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم "[٢٩]

هـ– ويبقى شرط أخير لن نطيل في الكلام عليه لوضوحه الشديد وهو أن السلوك الذي يحكم عليه بالخلق لا بد أن يستند إلى الإرادة الحرة، لأن الإرادة الحرة من أهم سمات الفعل الخلقي وكل فعل يصدر من المكلف دون قصد أو إرادة لا يعد فعلا خلقيا، ونفس الأمر في أفعال بعض الحيوانات التي تصدر عنها بعض الأفعال ذات السمات الخلقية كالوفاء والصبر لكنها لا تعد أخلاقا بالمعنى الاصطلاحي[٣٠].

والعلة في حكمنا على أفعال بعض الحيوانات –كالوفاء الذي يظهره الكلب تجاه صاحبه– بأنها ليست من قبيل السلوك الأخلاقي بالمعنى الدقيق هو أنها خالية من الغائية والقصد وتصور الزمان وإدراك القيمة، بمعنى أنها ليست أفعالا إرادية تكشف عن وعي أخلاقي صحيح أو تقدير واع للأمور، لا سيما إذا عرفنا الفعل الإرادي بأنه ذلك الفعل الذي يمكن للفاعل أن يختار سواه وهو أمر غير متحقق لدى الحيوانات[٣١].

وعلى نفس المنوال نلاحظ أن الأفعال غير الأخلاقية إذا صدرت دون قصد أو إرادة أو نتيجة قهر أو إكراه فلا تثريب على صاحبها، وقد تضافرت النصوص الشرعية في رفع الإثم عن المخطئ والناسي والساهي والنائم والمكره، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (الأحزاب:٥) وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النحل: ١٠٦)

وإضافة للتعريف السابق للأخلاق والذي نال الكثير من الشهرة والانتشار فثمة تعريف آخر يتميز بالعمق والشمولية في النظرة للإنسان ومكوناته المختلفة، وهو تعريف ابن القيم للخلق[٣٢] بأنه "هيئة مركبة من علوم صادقة وإرادات زاكية وأعمال ظاهرة وباطنة موافقة للعدل والحكمة والمصلحة، وأقوال مطابقة للحق تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقا هي أزكى الأخلاق وأشرفها وأفضلها"[٣٣]

ومن خلال هذا التعريف وما فيه من شمول يتبين لنا وجه تسمية الخلق دينا، وقد فسر الصحابي الجليل عبد الله بن عباس ﷺ قوله تعالى: في الثناء على نبيه ﷺ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤) أي على دين عظيم، كذلك نفهم قول

عائشة ﵂ لمن سألها عن خلق الرسول ﷺ بأنه "كان خلقه القرآن" أي أن أخلاقه ﷺ مقتبسة من مشكاة القرآن " فكان كلامه مطابقا للقرآن تفصيلا له وتبيينا، وعلومه علوم القرآن وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه وسعيه في تنفيذ أوامره وتبليغه والجهاد في إقامته، فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن، وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى فاكتفى به واشتفى"[٣٤]

وتبقى ملاحظة مهمة نختم بها الكلام عن تعريف الأخلاق اصطلاحا، وهي ضرورة الانتباه إلى وجود فرق دقيق بين كل من الخلق والسلوك، فالخلق أمر معنوي وهو صفة نفسية داخلية، أما السلوك فهو المظهر الخارجي ويعتبر بمثابة دليل على وجود خلق ما، فإذا رأينا شخصا يعطي دائما ويبذل المال في شتى المواقف فذلك دليل على اتصافه بخلق الكرم والجود، لكن دلالة السلوك على الخلق الأصيل الثابت في النفس ليست من قبيل الدلالات القطعية اليقينية وإنما هي دلالة ظنية، لأن السلوك لا يعبر دائما عن خلق أصيل راسخ في النفس وإنما قد يكون استجابة لغريزة طارئة أو صادرا عن تكلف وتصنع، ورياء ونفاق[٣٥].

وقد وصف الله فريقا من الناس يتصنعون السلوك الحسن في الظاهر بينما تنطوي بواطنهم وأخلاقهم بكل سيء وقبيح فقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ (البقرة: ٢٠٤) ومع أن صنيع هذا الفريق ربما راج على بعض الناس ردحا من الزمن، لكن لابد أن يأتي اليوم الذي يفضحهم الله فيه ويبدي للناس مكنون سرائرهم، والتي تتسلل أحيانا عبر فلتات اللسان ونظرات العيون.

ومن الأدلة التي تشهد لهذا المعنى قول الله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: ٣٠) وقال النبي ﷺ: "ما من عبد إلا وله صيت في السماء، فإن كان صيته في السماء حسنا وضع في الأرض وإن كان صيته في السماء سيئا وضع في الأرض "[٣٦]

ومن الآثار الواردة عن السلف في هذا المعنى قول بعضهم: (ما أسر عبد سريرة إلا أظهرها الله على قسمات وجهه أو في فلتات لسانه)[٣٧] كما أن من عظم الله في الخلوة أجله الله في العلانية قال ابن عباس ﵄: (إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وقوةً في البدن، وسعةً في الرزق، ومحبةً في قلوب الخلق،وإن

للسيئة سواداً في الوجه، وظلمةً في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق)[٣٨] وقال ذو النون المصري (كان العلماء يتواعظون بثلاث ويكتب بعضهم إلى بعض: من أحسن سريرته أحسن الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر أخرته أصلح الله أمر دنياه)[٣٩]

كذلك يروى عن أبي الدرداء ﷺ أنه قال "ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله فيلقى الله له البغض في قلوب المؤمنين، وقال سليمان التيمي إن الرجل ليصيب الذنب في السر فيصبح وعليه مذلته، وقال غيره إن العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبين الله ثم يجيء إلى إخوانه فيرون أثر ذلك عليه، وهذا من أعظم الأدلة على وجود الإله الحق المجازي بذرات الأعمال في الدنيا قبل الآخرة، ولا يضيع عنده عمل عامل ولا ينفع من قدرته حجاب ولا استتار، فالسعيد من أصلح ما بينه وبين الله، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق، ومن التمس محامد الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذاما له"[٤٠]

تعريف علم الأخلاق اصطلاحا:

وإذا كنا فيما سبق قد عرفنا الأخلاق في اللغة والاصطلاح، باعتبارها صفات نفسية للإنسان يصدر عنها سلوكه، فيبقى أن نعرف الأخلاق باعتبارها علما له أصوله ومبادئه وقواعده[٤١].

وقد مر علم الأخلاق بما تعرض له غيره من العلوم، حيث ينشأ في أول الأمر بصورة تفتقد التحديد الدقيق، ثم يتحدد الأمر شيئا فشيئا حتى نصل إلى تعريف أو تعريفات اصطلاحية تحدد مفهوم هذا العلم وطبيعته وتميزه عن غيره[٤٢].

ومن المهم أن نشير إلى أن التطور التاريخي لذلك العلم وانطباعه بالطوابع المختلفة لعصور الفكر الإنساني وتأثره بمناخ كل طور من أطور الحياة الإنسانية التي تختلف فيما بينها اختلافا كبيرا في تحديد مركز الإنسان في هذه الدنيا وغايته منها وكيف يحقق سعادته من خلاله عيشه فيها، كل ذلك قد جعل دائرة هذا العلم تختلف كما وكيفا باختلاف العصور والأطوار[٤٣].

وقد ترتب على هذا الأمر أنه صار من الصعب أن نحصل على تعريف موحد أو تحديد قاطع يصور ذلك العلوم في مختلف العصور ولدى جميع الدارسين، ومن أجل ذلك اختلفت تعريفاته وتعددت تحديداته[٤٤].

وهناك الكثير من التعريفات التي قدمت لعلم الأخلاق، ولا بأس أن نشير إلى نماذج منها[٤٥]:

أ- هناك من عرف هذا العلم بتعريفات مختصرة جدا كتعريف الكاتب الفرنسي باسكال لعلم الأخلاق بأنه علم الإنسان، أو تعريف البعض له بأنه علم العادات، أو علم دراسة الواجب والواجبات[٤٦].

والملاحظ على هذه التعريفات أنها غير دقيقة وليست جامعة ولا مانعة، فهي إما واسعة جدا وإما تقتصر على بعض جوانب علم الأخلاق وتغفل جوانب أخرى، بينما المفترض في التعريفات أن تعطي صورة واضحة ودقيقة.

ب- وقد أورد معجم لالاند ثلاثة تعريفات للأخلاق وهي: أن الأخلاق "مجموعة قواعد السلوك مأخوذة من حيث هي غير مشروطة" أو هي "السلوك المطابق للأخلاق" أو هي "نظرية عقلية في الخير والشر"[٤٧]

ويتضح من هذه التعريفات أن أصحابها مختلفون في نظرتهم إلى علم الأخلاق ووظيفته وطابعه والمنهج المستخدم فيه، وهل هو علم معياري يهتم بما ينبغي أن يكون، أم أنه علم وصفي يقتصر دوره على رصد ووصف ما هو كائن فقط ؟[٤٨].

ج- وإذا تجاوزنا هذه التعريفات التي قدمها علماء الأخلاق الغربيون إلى ما قدمه أساتذة الأخلاق المسلمون فسوف نجد عددا من التعريفات التي يغلب عليها الطول النسبي نظرا لحرص أصحابها على ذكر طبيعة هذا العلم وموضوعاته وأبرز غاياته.

ومن نماذج هذه التعريفات ما ذهب إليه البعض من تعريف علم الأخلاق بأنه "علم يوضح الخير والشر، ويبين ما ينبغي أن تكون عليه معاملة الناس بعضهم بعضا، وينير السبيل لعمل ما ينبغي"[٤٩] أو هو "العلم بالفضائل، وكيفية اقتنائها ليتحلى بها الإنسان، والعلم بالرذائل وكيفية توقيها ليتخلى عنها، والإلمام بقواعد السلوك الإنساني وبالمقياس الذي تقاس به أعمال الإنسان الإرادية فيحكم عليها بأنها خير أو شر مع تحديد الجزاء لكل منهما"[٥٠]

وهناك من عرف علم الأخلاق بأنه " علم يدرس ظاهرة السلوك الإنساني من حيث منابعه ودوافعه وغاياته، ويحدد القيم والقواعد العملية التي يجب مراعاتها في السلوك أيا كان لون هذا السلوك أو شكله، كما يدرس وسائل الإلزام والالتزام بالسلوك الخير، ووسائل الابتعاد عن السلوك الشرير"[٥١]

د- وإذا كانت التعريفات السابقة تعرف علم الأخلاق على وجه العموم فلعل من الضروري أن يضاف للتعريف قيود ومحترزات تضفي عليه الصبغة الإسلامية وتؤكد على البعد العقدي في مفهوم هذا العلم ومنطلقه وغايته.

وهذا ما نجده في تعريف بعض أساتذتنا لعلم الأخلاق بأنه "علم يهتم بدراسة قواعد السلوك البشري وتطبيقاتها في ظل أصول عقائدية وغايات حددتها الشريعة، كما حددت ضوابط هذا السلوك بما يجعل هذه الضوابط معايير عامة لا تختلف في زمان أو مكان أو أشخاص"[٥٢].

وعلم الأخلاق وفقا لهذا المفهوم علم معياري يقرر ما ينبغي أن يكون ويجمع ما بين النظر والعمل، كما يجمع ما بين المثالية والواقعية، وصحيح أن قيمه ثابتة لا تتغير، لكن تطبيقاتها تتسم بشيء من المرونة[٥٣].

وظيفة علم الأخلاق والغاية منه:

يمكن القول بأن الوظيفة الأساسية لعلم الأخلاق تتمثل في وضع قواعد حاكمة للسلوك الإنساني والحكم عليه إيجابا أو سلبا، وبيان الفضائل والحث عليها، ومعرفة الرذائل والتحذير منها[٥٤]، والغاية التي يتوخاها علم الأخلاق من ذلك كله هي تحقيق السعادة النفسية والطمأنينة القلبية للإنسان، وتهيئة الحياة الآمنة والعيشة الراضية له في كل من حياته العاجلة والآجلة[٥٥].

وقد تباينت آراء أصحاب المدارس الفلسفية في تحديد المهمة الأساسية لعلم الأخلاق تبعا لاختلافهم في طبيعة المبادئ الخلقية نفسها، وهل هي مطلقة وثابتة أم أنها نسبية ومتغيرة، وثمة اتجاهان بارزان في هذا الصدد[٥٦]:

الاتجاه الأول: اتجاه المثاليين: ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن وظيفة علم الأخلاق أن يضع المبادئ والقواعد الخلقية التي ينبغي أن يسير عليها السلوك الإنساني بصفة عامة، أي بالقياس إلى الإنسان عموما لا من حيث إنه يعيش في بيئة معينة أو يخضع لظروف معينة أو ينتمي لجنس ما.

وعلم الأخلاق وفقا لهذه النظرة علم معياري يبحث فيما ينبغي أن يكون عليه السلوك الإنساني وليس نظره مقصورا على ما هو كائن فحسب، وإنما يحدد المعيار الذي يحكم ويضبط الأفعال الإنساني.

وقد عمد أصحاب هذا الاتجاه إلى دراسة المبادئ الأخلاقية دراسة مجردة لا يكادون يلتفتون فيها إلى الواقع الخارجي، وإنما يرجع الفيلسوف إلى ذاته وشعوره كي يحدد المبادئ الخلقية التي يجب على كل إنسان أن يلتزم بها.

ويلاحظ أيضا أنهم اعتمدوا في دراستهم على المنهج النظري المجرد معتبرين أن الخير ضرورة عقلية، وإنما يتأتى إدراكه بالعقل أو الحدس مثلما تدرك البديهيات الرياضية التي لا تحتاج إلى برهان أو دليل، ولذا كان طبيعيا أن يصطنعوا منهج الاستنباط في البحث الخلقي.

وخلاصة الأمر أن المبادئ الخلقية عند المثاليين تتسم بأنها مبادئ عامة تشمل الإنسان أنى وجد وحيث كان، وأنها مطلقة غير نسبية وصالحة للتطبيق في كل زمان ومكان ولا تتغير بتغير الظروف والأحوال، كما أنها ضرورية وواضحة بذاتها لا تحتمل شكا ولا تحمل تناقضا[٥٧].

الاتجاه الثاني: اتجاه الواقعيين أو الوضعيين. ويرى أصحاب هذا الاتجاه أن علم الأخلاق علم وضعي يعتمد مثل غيره من العلوم الوضعية على الملاحظة والتجربة وليس على التأمل العقلي، ووظيفته الأساسية هي وصف الظواهر أو الأفعال الخلقية دون الاشتغال بالحكم عليها، أو وضع مبادئ تحدد ما ينبغي أن تكون عليه هذا الأفعال، بمعنى أن يدرس ما هو كائن وليس ما ينبغي أن يكون.

وتبعا لهذا التصور فإن المنهج المتبع عندهم هو المنهج الاستقرائي الذي يعتمد على الملاحظة والتجربة، ويبدأ دراسته من الواقع الخارجي وما هو كائن بالفعل لأنه فقط الذي يمكن التحقق من صدقه.

والأخلاق عند أصحاب هذا الاتجاه نسبية ومتغيرة وليست مطلقة، ومن ثم فهي تختلف باختلاف ظروف الأفراد والمجتمعات، وما يعد قبيحا في مجتمع ما قد لا يكون كذلك في مجتمع آخر، كما أن فكرة الخير ليست سوى اصطلاح تعارف عليه مجموعة من الناس يقيمون في زمان معين ومكان محدد.

وأظن أنه لا يخفى ما ينطوي عليه رأي الاتجاه الوضعي من خطورة[٥٨] تكاد تنسف فكرة الأخلاق نسفا، ولنا أن نتساءل عما يبقى من الأخلاق حينما يقال إن المبادئ الأخلاقية نسبية ومتغيرة من مكان لآخر ومن زمان لآخر، وإنها مجرد أفكار أو مصطلحات تواضع عليها الناس في مجتمع ما ولا وجود لمبادئ كلية قطعية لا تختلف من شخص لآخر.

وأما مخالفة هذا الاتجاه لدين الإسلام بل لكل دين أنزله الله على رسول من رسله فأمر أوضح من أن نطيل في التدليل عليه، وإذا كانت الشرائع تختلف فيما بينها من ناحية التكليفات والحلال والحرام كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (المائدة: ٤٨) فإنها متفقة تماما في كليات الأخلاق وأصولها، ولا يوجد

عاقل يشك في أن الصدق والأمانة والعفة والعدل أمور مستحسنة وواجبة في كل دين، كما أن أضدادها من الكذب والخيانة والفجور والظلم رذائل مستقبحة ومحرمة في سائر الأديان.

وقبل أن نختم الكلام عن وظيفة علم الأخلاق وفائدته نشير إلى أنه ربما ثار تساؤل في أذهان البعض عن جدوى دراسة علم الأخلاق، وهل في استطاعة علم الأخلاق أن يجعلنا صالحين أخيارا، وهل تعلمه للكبار والصغار وإشاعته في المجتمع كفيل بتحويله إلى مجتمع مثالي يشبه تلك الجمهوريات الفاضلة التي طالما حلم بها الفلاسفة والمفكرون ؟

وللجواب عن مثل هذا التساؤل نسوق النقاط التالية[٥٩]:

أ- من المسلم به أن كل علم من العلوم يفيدنا في الميدان الذي يبحث فيه هذا العلم، ويمدنا بالنظريات التي تبصرنا بأصوله وفروعه، وعلى سبيل المثال فإن علم الطب يبين لنا الأمراض المختلفة ووسائل علاجنا وكيفية الوقاية منها وما أشبه ذلك، وكذلك الحال في علم الأخلاق الذي يبن لنا الفضائل من الرذائل ويضع أيدينا على القواعد الضابطة للسلوك الإنساني.

ب- ليست معرفتنا بالعلم كافية بمفردها لأن نحقق الغاية منه، ومن ثم فإن معرفتنا بعلم الطب لا تضمن لنا الصحة والعافية، وتجعلنا بمنأى عن المرض، ولو كان الحال كذلك لكان الأطباء أصح الناس وما مرض منهم أحد، وإنما تتحقق الصحة باتباع القواعد المقررة، والبعد عن أسباب الأمراض وعوامل العدوى.

وعلى نفس المنوال فإن تزكية النفوس وصحة السلوك ليس موقوفا على الإحاطة بعلم الأخلاق فحسب، وإنما لابد من اتباع ما فيه والعمل بما تضمنه، وما أشبه ذلك بمثال الطبيب الذي يصف الدواء الناجع، لكن الشفاء لا يتحقق إلا إذا تناوله المريض على نحو ما أمر به، وهكذا الحال بالنسبة لعلم الأخلاق الذي لا يستطيع أن يجعل كل فرد صالحا مستقيما وإنما دوره أن يبصره بالخير والشر، ثم يبقى الإنسان حرا كما قال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣) وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس: ٧، ٨)

ج- ومما يزيد الأمور وضوحا أن نضع في اعتبارنا أن للإنسان قوتين أساسيتين، إحداهما القوة العلمية والأخرى القوة العملية، وسعادته موقوفة على استكمال هاتين القوتين، بل إن كل سائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى أي مقصد من

المقاصد لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين قوة علمية وقوة عملية، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها فيكشف له النور عن الأمرين أعلام الطريق ومعاطبها، وبالقوة العملية يسير حقيقة بل السير هو حقيقة القوة العملية فإن السير هو عمل المسافر[٦٠].

والمتأمل لأحوال الناس يجدهم متفاوتين أبلغ تفاوت في تكميل هاتين القوتين: فمنهم من يكون له القوة العلمية الكاشفة عن الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاثرها، وتكون هذه القوة أغلب القوتين عليه، ويكون ضعيفا في القوة العملية. يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب ولا يتوقاها، فهو فقيه ما لم يحضر العمل، وإذا حضر العمل شارك الجهال في التخلف وفارقهم في العلم، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المشتغلة بالعلم ومن الناس من تكون له القوة العملية الإرادية وتكون أغلب القوتين عليه، وتقتضي هذه القوة السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل، ويكون أعمى البصر عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأعمال والأقوال والمقامات، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات، فداء هذا من جهله وداء الأول من فساد إرادته وضعف عقله، وهذا حال أكثر أرباب الفقر والتصوف السالكين على غير طريق العلم بل على طريق الذوق والوجد والعادة[٦١].

والشاهد مما سبق أن علم الأخلاق يمكن أن يمدنا بما يشبع القوة العلمية التي نعرف بها الحق من الباطل والخير من الشر، لكن يبقى الجانب الآخر وهو القوة العملية الإرادية التي تدفع الإنسان للعمل والسلوك الطيب.

د- وأخيرا فإن العلم بالخير ليس كافيا لإتيانه، والعلم بالشر ليس كافيا لاجتنابه، وقد ذكر الله لنا في كتابه أمثلة لهذا النوع الذي آتاه الله العلم فلم ينتفع به وإنما كان وبالا عليه، فقال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٥) وفي السنة النبوية صح عن النبي ﷺ أن من

أول من تسعر بهم النار "رجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار"[٦٢] كذلك كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من علم لا ينفع فيقول: "اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع"[٦٣]

المطلب الثاني طبيعة الأخلاق، ومدى قابليتها للتغيير

تعد هذه المسألة من المسائل المهمة التي ثار حولها خلاف في علم الأخلاق، ويحسن بنا أن نقف عندها بشيء من التفصيل، نظرا لما يترتب عليها من آثار عملية وتربوية بالغة الأثر.

والمقصود بهذه المسألة هو البحث في طبيعة الأخلاق وكيفية حصولها في النفس الإنسانية، وهل هي فطرية يولد الإنسان وهي مغروسة بداخله، أم أنها مكتسبة نتيجة جهد وسعي من المكلف، ويترتب على ما سبق سؤال آخر وهو: هل الإنسان مطبوع على الخير أم على الشر أم عليهما معا، وهل الناس كلهم سواء أم أن بعضهم مطبوع على الخير وبعضهم مطبوع على الشر؟

ومن خلال الإجابة عن السؤالين السابقين يتحدد الموقف من قضية أخلاقية وتربوية في غاية الأهمية، وهي مدى قابلية الأخلاق للتغيير والتهذيب، وهل بوسع الإنسان أن يتخلص من خلق ذميم أو عادة سيئة صاحبته لمدة طويلة، أم أن ذلك غير ممكن بحال من الأحوال ؟

ومن الواضح أن هذه القضايا الثلاثة مرتبطة ببعضها البعض أتم الارتباط، بحيث يصبح تبني رأي ما تجاه واحدة منها مؤثرا بالضرورة على القضيتين الأخريين، وهذا ما حدث بالفعل لدى فلاسفة الأخلاق القدامى والمحدثين.

فهناك من الفلاسفة من ذهبوا إلى أن الإنسان يولد مطبوعا على نوعية ما من الأخلاق لا يستطيع تغييرها بحال، لأن الإرادة الإنسانية سجينة في نطاق حديدي من الغرائز والطبائع، وكما يقول بعض أصحاب هذه النزعة فإن الناس يولدون "أخيارا أو أشرارا كما يولد الحمل وديعا والنمر مفترسا، وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم كما يصف التاريخ الطبيعي حياة الحيوان، لكن جماهير دارسي الأخلاق في القديم والحديث يميلون إلى القول بأن الأخلاق مكتسبة، وبوسع الإنسان أن يغير من أخلاقه السيئة وأن يتخلص من الرذائل التي دأب على فعلها"[٦٤].

وأما عن أصل الطبيعة البشرية وهل هي مطبوعة على الخير أم الشر، فهناك ثلاثة اتجاهات رئيسة[٦٥]: **أولها:** يرى أن الإنسان خير بطبعه، والشر عارض له، وهو مذهب المتفائلين أمثال جان جاك روسو، كما نسبه البعض إلى سقراط والرواقيين، **والمذهب الثاني:** يرى أن الإنسان شرير بطبعه والخير طارئ عليه وهو مذهب المتشائمين كالبوذية وأشباههم، ولعله سرى من هؤلاء إلى الكنيسة المسيحية التي ترى أن الإنسان منذ خطيئة آدم قد انقلب شريرا لا حيلة في إصلاحه بنفسه ولا غنى له عن منقذ ومخلص وبنت على ذلك بعض عقائدها الأساسية كعقيدة الصلب والفداء، **والمذهب الثالث:** أن الإنسان خلق مستعدا للخير والشر جميعا وهو قول جماهير الفلاسفة وعلماء النفس والتربية في هذا العصر.

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة نصوصا وحكايات في الأدب العربي تتجه نفس هذه الوجهة القائلة بأن الإنسان قد طبع على أخلاق ما وليس بوسعه أن يغير منها شيئا، ومن ذلك قصة تلك المرأة التي ربت ذئبا صغيرا مع غنم لها، فلما كبر انقض على شاة منها وفتك بها، فأنشدت قائلة [٦٦]:

بقرت شويهتي وفجعت قومي وأنت لشاتنا ابن ربيب
غذيت بدرها ونشأت معها فمن أنباك أن أباك ذيب
إذا كان الطباع طباع سوء فلا أدب يفيد ولا أديب

وقال آخر[٦٧]

ذئابٌ كلنا في زيِّ ناس .... فسبحانَ الذي فيه برانا
يعافُ الذئبُ يأكلُ لحمَ ذئبٍ... ويأكلُ بعضُنا بعضاً عِيان

وقال ثالث[٦٨]:

ولن يستطيع الدهر تغيير خلقه لئيم ولا يستطيعه متكرم
وما هذه الأخلاق إلا غرائز فمنهن محمود ومنها مذمم

وإذا ما حاولنا أن نوازن بين الاتجاهات السابقة، وأن نذكر ما نعتقده في هذه المسألة مسترشدين في المقام الأول بنصوص الكتاب والسنة ومهتدين بهداهما، فيمكننا أن نخلص إلى ثلاث حقائق أساسية:

الحقيقة الأولى: أن الأخلاق ليست كلها فطرية وليست كلها مكتسبة بل إنها تجمع ما بين النوعين[٦٩]، وقد دلت أحاديث كثيرة على هذا الأمر وأشارت إلى أن من الأخلاق ما هو فطري، يتفاضل به الناس في أصل تكوينهم وخلقتهم[٧٠].

ومن أمثلة هذه الأحاديث قول النبي ﷺ: "الناس معادن كمعادن الذهب

والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"[٧١] وهذا الحديث دليل على فروق الهبات الفطرية الخلقية، وفيه يثبت الرسول ﷺ أن خيار الناس في التكوين الفطري هم أكرمهم خلقا، وهذا التكوين الخلقي يرافق الإنسان ويصاحبه على جميع أحواله.

وعن حذيفة بن اليمان ﷺ قال: حدثنا رسول الله ﷺ حديثين، قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر حدثنا: «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة»[٧٢] وفي هذا الحديث بيان عن الأمانة في الناس وعما تصير إليه فيهم، وقد أبان الرسول ﷺ حقيقة من حقائق التكوين الخلقي الفطري في الناس، وهذه الحقيقة تثبت أن الأصل في الناس أن يكونوا أمناء، كذلك قال ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة، فقال يا رسول الله كان بي أم حدثا ؟ قال: بل قديم، فقال الحمد لله الذي جبلني على خصلتين يحبهما»[٧٣].

ومن المواقف العملية الشاهدة على الأخلاق الفطرية ما روي عن أبي بكر ﷺ أنه لم يشرب الخمر قط، ولما سئل: بم كان يتجنبها في الجاهلية فقال " كنت أصون عرضي وأحفظ مروءتي، فإن من شرب الخمر كان مضيعا في عقله ومروءته "[٧٤]

وهذه خديجة ﷺ –حين جاءها رسول الله ﷺ أول نبوته وهو يقول «زملوني، زملوني » قالت: والله لا يخزيك الله أبدا: إنك لتصل الرحم، وتكسب المعدوم، وتعيين على نوائب الدهر"[٧٥]

وروي بسند فيه كلام أنه حين بايع رسول الله ﷺ النساء قال: «بايعنني على أن لا تشركن بالله شيئا إلى أن قال: (ولا تزنين) قالت هند بنت عتبة ﷺ: هل تزني الحرة ؟»[٧٦] فسؤالها يدل على أنفة وعفة وطهارة، وتلك هي الفطرة السوية التي فطرهن الله عليها تعرف الحق، وتتجه للخير،والفطرة حين تسلم من العوارض المشوشة عليها، والتأثيرات المخدرة لها وتسقط عنها الحوائل، فإنها عندئذ تستقيم لربها وتعرف الحق، وتدعو إلى كل خلق جميل.

وكما أن هناك أخلاقا فطرية، فإن بإمكان أي إنسان أن يكتسب بعض الفضائل والأخلاق، وذلك بالتربية المقترنة بالإرادة والقيم، والناس في ذلك متفاوتون بمدى سبقهم وارتقائهم في سلم الفضائل، كما أن كل إنسان عاقل يستطيع بما وهبه الله من استعداد عام أن يتعلم نسبة من العلوم والفنون، وأن يكتسب مقدارا

ما من أي مهارة عملية من المهارات. وتفاوت الاستعداد والطبائع لا ينافى وجود استعداد عام صالح لاكتساب مقدار من الصفات الخلقية، وفي حدود هذا الاستعداد العام وردت التكاليف الشرعية الربانية العامة، ثم ترتقي من بعده مسؤوليات الأفراد بحسب ما وهب الله كلا منهم من فطر، وبحسب ما وهب كلا منهم من استعدادات خاصة، ووفق هذا الأساس وضع الإسلام قواعد التربية على الأخلاق الفاضلة[٧٧].

الحقيقة الثانية: أن طبيعة الإنسان طبيعة مركبة أو مزدوجة[٧٨] كما قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (الإنسان:٢) والمقصد من خلق الإنسان على هذه الهيئة هو تحقيق معنى الابتلاء والاختبار، حيث وضع الله أمام الإنسان طريق الخير والشر وأعطاه القدرة على الاختيار، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: ١٠) وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: ٣) وقال تعالى: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا)(الشمس: ٧، ٨)

وتدل آيات القرآن على وجود صفات مزدوجة في النفس البشرية يمكنه بها أن يرتقى إلى أعلى المراتب أو أن يهبط إلى أسفل سافلين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ (العصر: ٢-٣) وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ.إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (التين:٤- ٦)

والمتأمل لكتاب الله يجد عددا من الصفات التي أخبر الله سبحانه أن أكثر الناس متصفون بها إلا من رحم الله وقليل ما هم، ومن هذه الصفات[٧٩]:

أ- العجل كما قال تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ (الأنبياء:٣٧) وقال سبحانه ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ (الإسراء:١١) وحكى الله عن نفر من الكافرين أنهم قالوا ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (ص: ١٦) وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ (يونس: ١١)

ب- كثرة الجدل والخصومة كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف:٥٤) وقال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (النحل:٤)

ج- الطمع المستمر في الحصول على مزيد من الخيرات كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ (فصلت:٤٩) وقال تعالى:

﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (العاديات: ٨)

د- كثرة النكران للنعمة والإحسان كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ (العاديات: ٦)

هـ- الهلع عند نزول المصيبة، والشح والمنع عند نزول النعم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا. إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا. وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ (المعارج: ١٩-٢١) وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ (هود ٩- ١٠)

و- التضرع عند نزول الملمات ثم النسيان والبطر والطغيان عند رفع البلاء ونزول النعم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ١٢)

لكن الإنسان -رغم وجود هذه الصفات- يستطيع بما حباه الله من قدرات ونعم أن يرتقي ليصير ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩) كما يستطيع أن يكون من ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣)

وإذا كنا نقول إن طبيعة الإنسان مزدوجة ومهيئة للخير وللشر، فلا ينبغي أن ننسى أنها في أصلها أقرب للسلامة والاستقامة[٨٠]، ولو بقيت على ما هي عليه دون مؤثرات خارجية لسلكت الطريق القويم.

ومما يدل على ذلك النصوص الشرعية التي تكلمت عن الفطرة، وما ذكره علماء العقيدة[٨١] من أن دليل الفطرة يعد من أهم الأدلة التي نبه عليها القرآن الكريم للدلالة على وجود الله سبحانه، بل إنه جعله في مقدمة تلك الأدلة وأساسا لها، فالفطرة السليمة مجبولة على الإقرار بوجود الرب الخالق، والإيمان به تعالى: مغروز في طبيعة البشر وفي شعور كل عاقل وضميره، ولذا فإن الإيمان أجل وأرفع في نظر الإسلام من أن يكون موضع شك أو ارتياب، كما قالت الرسل لأقوامهم ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (إبراهيم:١٠)

والمراد بقولنا إن معرفة الله فطرية: أن كل إنسان يولد على صفة تقتضي إقراره بأن له خالقا مدبرا وتستوجب معرفته إياه وتألهه له، وهذه الصفة ذاتها هي

القوة المغروسة في الإنسان التي تقتضي اعتقاده للحق دون الباطل وإرادته للنافع دون الضار، وثمة شواهد وأدلة عديدة تؤكد على أن الإيمان بالله فطرة خلق الإنسان عليها وأنها طبيعة راسخة فيه مثل سائر الطبائع التي لا تفارقه في أصل وجوده.

ومن هذه الشواهد الأدلة من الكتاب والسنة: ومن ذلك آية الميثاق أي قوله تعالى: من سورة الأعراف ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف:١٧٢] وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[الروم:٣٠] وقوله تعالى: ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[إبراهيم:١٠] ويضاف لذلك استفهامات التقرير بالربوبية وهي كثيرة في القرآنية، وتتضمن تقريرا للناس بأمر تعرفه فطرهم وهو ما غرسه الله فيهم من معرفته، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠] وقوله ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ [الزخرف:٨٧] .

وأما السنة فقد ورد فيها أحاديث كثيرة منها قول النبي ﷺ: "كل مولود يولد على الفطرة"[٨٢] وقوله ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلا " إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم"[٨٣]

الحقيقة الثالثة: أن بوسع الإنسان أن يغير من أخلاقه وأن يكتسب الخصال الحميدة ويبتعد عن الخصال السيئة والمذمومة، خلافا لمن منع ذلك ممن وصفهم أبو حامد الغزالي بأنهم قوم غلبت البطالة عليهم، واستثقلوا المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفوسهم بأن يكون ذلك لقصورهم ونقصهم وخبث دخائلهم، فزعموا أن الأخلاق لا يتصور تغييرها فإن الطباع لا تتغير[٨٤].

ومن الحجج التي ساقها أصحاب هذا القول للدلالة على استحالة تغيير الأخلاق[٨٥] زعمهم أن الخلق هو صورة الباطن، كما أن الخلق هو صورة الظاهر، فالخلقة الظاهرة لا يقدر على تغييرها، فالقصير لا يقدر أن يجعل نفسه طويلا ولا الطويل يقدر أن يجعل نفسه قصيرا، ولا القبيح يقدر على تحسين صورته فكذلك القبح الباطن يجري هذا المجرى.

ويرد عليهم بأنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما كان للنصوص الشرعية الآمرة بتحسن الأخلاق من فائدة، بل لما كان هناك من مصلحة أصلا في إرسال الرسل والأنبياء لأقوامهم، ولاحتج قوم لوط وقوم شعيب مثلا على رسلهم الذين أمروهم بترك الفواحش وعدم التطفيف في الميزان بأن ذلك غير ممكن لعدم استطاعتهم أن يغيروا أخلاقهم، ومن المستغرب فعلا أن ينكر أحد إمكان تغيير الأخلاق في حق الآدمي مع أن ذلك ممكن في حق البهائم، حيث ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس، والكلب من شره الأكل إلى التأدب والإمساك والتخلية، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق[٨٦].

وقد ثبت من نصوص السنة ما يدل بوضوح على أن تغيير الأخلاق واكتساب المحمود منها أمر ممكن بل مطلوب من كل مكلف، ومن ذلك قوله ﷺ: "من يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله"[٨٧] وقال ﷺ: "إنما العلم بالتعلم، وإنما الحلم بالتحلم"[٨٨] وكان من دعائه ﷺ "اهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت"[٨٩]

الحقيقة الرابعة: أن للأخلاق أهمية كبيرة في الإسلام، وقد تواترت النصوص في الأمر بها، والحث على التحلي بجميلها، ومدح أصحاب الخلق الحسن، ولو لم تكن الأخلاق قابلة للتغيير فإن كل تلك النصوص تصير محصورة في قسم واحد فقط وهم من جبلوا على الخلاق الحسنة، ولا شك في بعد هذا القول وبطلانه، وما يترتب عليه من حرمان الخلق من نصوص الشرع الكثيرة الواردة في فضل الأخلاق الحسنة.

ففي القرآن الكريم، آيات كثيرة تؤكد على أهمية الجانب الأخلاقي وتزكية النفوس وتحليتها بالفضائل وتطهيرها من الرذائل، وقد أقسم الله تعالى: أحد عشر قسما متتاليا –لم تأت إلا في موضع واحد من القرآن– على أن الفلاح منوط بتزكية النفوس[٩٠] فقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا (١) وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا (٢) وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا (٤) وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا (٥) وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا (٦) وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠)﴾

وتدل آيات القرآن بوضوح على أن تزكية النفوس أمر مسلم للرسل وأنه من أعظم وظائفهم بعد غرس التوحيد في النفوس، وقد بعثهم الله لهذه التزكية

وولاهم إياها وجعلها على أيديهم دعوة وتعليما وبيانا وإرشادا[٩١]، فقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:٢) وقال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾(البقرة:١٥١) وقال موسى عليه السلام لفرعون:﴿هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى. وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾ (النازعات:١٨،١٩) كما أن تزكية النفوس سبب الفوز بالدرجات العلى في الجنة كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾ (طه: ٧٥، ٧٦)

وقد جمع الله لنبيه ﷺ مكارم الأخلاق وأصولها في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف:١٩٩) ومدح الله رسوله ﷺ أعظم مدح وأبلغه بقوله: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(القلم:٤)

٢- وإذا ذهبنا إلى السنة النبوية فسوف نجد الكثير الوفير من الأحاديث الصحيحة التي تحث على حسن الخلق، وتمدح المتحلين بذلك وتعدهم بالثواب العظيم، وتبشرهم بأرفع الدرجات في جنات النعيم.

ولا شك أن ذلك يتوافق تمام التوافق مع إخباره ﷺ أنه بعث ليتمم صالح الأخلاق أو مكارم الأخلاق[٩٢]، كما تجلى ذلك عمليا في هديه وسمته وسلوكه ﷺ الذي وصفته عائشة رضي الله عنها بأنه "كان خلقه القرآن"[٩٣] وقال أنس رضي الله عنه: "خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أف قط وما قال لشيء صنعته لم صنعته ولا لشيء تركته لم تركته وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا ولا مسست خزا قط ولا حريرا ولا شيئا كان ألين من كف رسول الله ﷺ ولا شممت مسكا قط ولا عطرا كان أطيب من عرق رسول الله ﷺ "[٩٤]

ومن الأحاديث الواردة في فضل حسن الخلق، والحث عليه: قول النبي ﷺ: "اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن"[٩٥] وقوله ﷺ: "إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلسا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون"[٩٦] وقوله ﷺ: "ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن وإن الله يبغض الفاحش البذيء"[٩٧] وقوله ﷺ: "إن المؤمن ليدرك بحسن الخلق

درجة الصائم والقائم"[٩٨]

وحينما سئل ﷺ عن "أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال تقوى الله وحسن الخلق، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار ؟ فقال الفم والفرج"[٩٩] وقال ﷺ: "أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقا وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحا وببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه"[١٠٠] وقال ﷺ: "من كان هينا لينا قريبا؛ حرمه الله على النار"[١٠١]

٣- كذلك يلحظ المطالع لسيرة النبي ﷺ أن حسن خلقه وكريم خصاله كان له تأثير كبير في نفوس المدعوين، كما كان سببا في إسلام عدد كبير من الصحابة الأوائل الذين عرفوا النبي ﷺ عن قرب قبل البعثة وخبروا أخلاقه وأيقنوا استحالة أن يدع الكذب على الخلق ثم يكذب على الخالق سبحانه.

ولعل في موقف خديجة ﵂ حينما نزل جبريل على النبي ﷺ في غار حراء أول مرة نموذج واضح في هذا الصدد، فقد رجع ﷺ إليها " يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ﵂ ، فقال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق"[١٠٢] ومن الواضح أنه قد رسخ في يقين خديجة ﵂ استحالة أن يخزي الله رجلا كالنبي ﷺ له مثل هذه الخصال والشمائل، واستدلت على " ما أقسمت عليه من نفي ذلك أبدا بأمر استقرائي وصفته بأصول مكارم الأخلاق، لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإما بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل وذلك كله مجموع فيما وصفته به "[١٠٣]

وكلما كان للداعية رصيد طيب من حسن الخلق عد الناس كلما كان ذلك أدعى لقبول دعوته وتصديق الناس له[١٠٤]، ومما يشهد لذلك ما حدث في أول الإسلام حينما انتقل ﷺ من مرحلة الدعوة السرية إلى الدعوة الجهرية ونزل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) صَعِدَ "النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفَا فَجَعَلَ يُنَادِي يَا بَنِي فِهْرٍ يَا بَنِي عَدِيٍّ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا لِيَنْظُرَ مَا هُوَ فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ فَقَالَ أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ قَالُوا نَعَمْ مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا قَالَ فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ "[١٠٥]

وفي تعليمه ﷺ للناس وتصحيحه للأخطاء كان يضرب أروع الأمثلة في

الحلم والأناة والرفق، وعدم التثريب على المخطئين، ومن أمثلة ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أنس بن مالك ﷺ أنه قال " بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: مه مه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزرموه دعوه» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: «إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول، ولا القذر إنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن "[١٠٦]

وخلاصة الأمر أن الآيات والأحاديث المتقدمة تقطع كلها ودونما شك بأن الجانب الأخلاقي له مكانته الكبرى في ميزان الله ؛ وأنه أصيل وجوهري في بنيان هذا الدين، فكيف يقال بعد هذه كله إن الأخلاق غير قابلة للتغيير ؟

ومما يجدر ذكره في ختام كلامنا عن مدى قابلية الأخلاق للتغيير أنه ثار خلاف حول تحديد موضوع علم الأخلاق، والذي يعد المحور الرئيس الذي تدور حوله شتى قضاياه ومسائله، وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن موضوع هذا العلم هو أفعال الإنسان الإرادية الصادرة عن تفكير وروية من حيث تقويمها والحكم عليها بأنها خيرة أو شريرة، وهناك فريق آخر يرى أن موضوعه هو مبادئ أو قواعد السلوك الإنساني[١٠٧].

ولا أظن أن الفرق بين الرأيين كبير، أو أن الهوة بينهما شاسعة، لأن دراسة الأفعال الإنسانية ليست مقصودة لذاتها، وإنما الغرض من تناولها بالفحص والدراسة هو تقويمها إيجابا أو سلبا وخيرا أو شرا، ووضع مبادئ وقواعد أخلاقية عامة حاكمة لها وضابطة لحركتها.

وإذا كانت أفعال الإنسان هي موضوع علم الأخلاق، فلعل من المهم أن نشير إلى أن هذه الأفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام أساسية[١٠٨]:

القسم الأول: الأفعال الإرادية: وهي التي تصدر عن الإنسان بعد تفكر وتدبر لنتائجها وتكوين إرادة لعملها، فإذا أراد الإنسان مثلا أن يسافر لمكان ما فإنه يفكر أولا هل يتخذ هذا القرار أم لا، ثم يحاول التعرف على وسيلة الانتقال وتكاليفها ومتي يسافر وأين يقيم هناك وكم من الأيام يمكث وغير ذلك من الأمور، ثم يبدأ في تحويل هذه الأفكار وتلك الإرادة الجازمة إلى حقيقة عملية واقعية.

القسم الثاني: الأفعال غير الإرادية: وهي التي تصدر عن الإنسان دون أن يفكر فيها وليس له إرادة في حدوثها كما لا يمكنها التحكم فيها ولا يملك إيقافها، ومن ذلك مثلا نبض القلب وتدفق الدم في العروق وعملية هضم الطعم، وما أشبه ذلك من

العمليات الحيوية التي تحدث دون قصد من الإنسان ولا يملك التحكم فيها لأنها تتم بطريقة لا شعورية

القسم الثالث: الأفعال المترددة بين كونها إرادية أو غير إرادية: وهي الأفعال التي يتردد الناظر في الحكم عليها لأنها تبدو إرادية من وجه وغير إرادية من وجه آخر، ومن ذلك أن نرى شخصيا شديد العصبية جدا يستثار من أمر ما فتصدر عنه حماقات وتصرفات شنيعة بسبب هياجه هذا وربما شتم أو ضرب أو قتل الآخرين، ومن الأمثلة الأخرى لهذه النوع من الأفعال ما نراه عند بعض الناس المبتلين بمرض المشي أثناء نومهم وربما ارتكب الوحيد منهم جريمة ثم يعود لفراشه دون أن يشعر بشيء مما اقترفته يداه وإذا رآه أحد وهو يمشي ويتحرك فسوف يجزم أنه إنسان واع في كامل حريته واختياره.

وبعد أن تبين لنا أن أفعال الإنسان تنقسم إلى هذه الأقسام الثلاثة، فيبقى التساؤل عن أي نوع منها يخضع للحكم الخلقي وأيها لا يخضع ؟ وبعبارة أخرى أي نوع منها يعد من موضوعات علم الأخلاق، وأيها لا يعد من هذا القبيل ؟

والجواب[١٠٩] هو أن القسم الأول وهو الأفعال الإرادية خاضع دونما شك للحكم الخلقي، ومستحق للوصف بالخير أو الشر، لأن صاحبه لم يأته إلا بعد قصد وإرادة وتفكر ومن ثم فهو مسئول عن عمله وعن النتائج المترتبة عليه.

وأما القسم الثاني وهو الأعمال غير الإرادية فلا شك أيضا أنه غير خاضع للحكم الخلقي، وليس من موضوع علم الأخلاق، ولا يليق أن يحكم عليه بكونه خيرا أو شرا فضلا عن أن يحاسب عليه صاحبه لأنه لا إرادة له ولا اختيار في حدوثه، وحاشا لله أن يسأل إنسانا لماذا نبض قلبه أو تدفقت الدماء في شرايينه، وإنما يسأل الإنسان عما قصده واختاره، وعلى سبيل المثال فالإنسان لا يسأل لماذا هضمت معدته وإنما يسأل عن الطعام الذي أدخله إلى هذه المعدة وهل هو حلال أو حرام ؟

ويبقى القسم الثالث والآخير وهو الأفعال ذات الشبهين، والتي تتردد بين كونها إرادية أو غير إرادية، وهذه الأفعال لا يسأل الإنسان فيها إلا عن القدر المتعلق بإرادته واختياره دون ما وقع بغير قصده ودون أن يكون له فيه يد بأي حال من الأحوال.

وبالنسبة للمثال الذي أشرنا إليه آنفا وهو الرجل الذي يمشي أثناء نومه وربما ارتكب جريمة فسوف نلاحظ أنه وإن لم يكن مسئولا عن أفعاله لأنها حدثت أثناء نومه، فإنه مكلف ومسئول عن جانب آخر وهو أخذ الاحتياطات اللازمة

والكفيلة بتحجيم المخاطر الناشئة عن حالته كأن يغلق الأبواب جيدا بما لا يسمح له الخروج أثناء نومه، أو أن يبيت مع من يمكنه أن يكف شره وما أشبه ذلك من احتياطات[١١٠]، وكذلك الحال فيما يتعلق بالشخص الذي يخرجه الغضب عن حال شعوره واعتداله، فهو مأمور أن يبتعد أولا عن الأسباب الموجبة للغضب، ثم على فرض وقوعه فعليه أن يكظم غيظه وأن يملك نفسه.

وقد نبه بعض شراح الحديث إلى قريب من هذا المعنى الذي ذكرناه حينما تعرضوا لقوله ﷺ للرجل الذي طلب منه الوصية " لا تغضب"[١١١] فمعنى النهي عن الغضب هنا يقصد به اجتناب أسباب الغضب وعدم التعرض لما يجلبه، وأما نفس الغضب فلا يتأتى النهي عنه لأنه أمر طبيعي لا يزول من الجبلة[١١٢]، وإذا كان نفس الغضب خارجا عن إرادة الإنسان فإن الشرع قد أرشده إلى أمرين مهمين، وكل واحد منهما في وسعه ويمكنه أن يأتي به[١١٣]:

الأول: أن يحصل الأسباب التي توجب حسن الخلق من الكرم والسخاء والحلم والحياء والتواضع والاحتمال وكف الأذى والصفح والعفو وكظم الغيظ والطلاقة والبشر، ونحو ذلك من الأخلاق الجميلة، فإن النفس إذا تخلقت بهذه الأخلاق وصارت لها عادة أوجب لها ذلك دفع الغضب عند حصول أسبابه.

والثاني: أن ألا يعمل بمقتضى الغضب إذا أصابه، بل يجاهد نفسه على ترك تنفيذه والعمل بما يأمر به، فإن الغضب إذا ملك شيئا من بني آدم كان الآمر والناهي له، وإذا لم يمتثل الإنسان ما يأمره به غضبه وجاهد نفسه على ذلك اندفع عنه شر الغضب، وربما سكن غضبه وذهب عاجلا وكأنه حينئذ لم يغضب، وإلى هذا المعنى وقعت الإشارة في القرآن بقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى:٣٧) وبقوله عز وجل: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (آل عمران:١٣٤)

الخاتمة:

وفي ختام بحثنا هذا نسوق أبرز النتائج والحقائق التي خلصنا إليها، ولعل من أهمها ما يلي:

أولا: ثمة تعريفات كثيرة لمصطلح الأخلاق قدمها العديد من الدارسين ذوي التوجهات المختلفة من متكلمين وفلاسفة وصوفية وباحثين مُحْدَثين، وقد تنوعت تعريفاتهم تبعا للاتجاه الفكري الذي يتبناه كل واحد منهم، والذي يؤثر بالضرورة على مفهومه للأخلاق وطبيعتها ووظيفتها وغايتها.

ثانيا: تنوعت اتجاهات الدراسات الأخلاقية لدى المفكرين المسلمين، ما بين عقلي وروحي وجامع بينهما، إضافة لاتجاه رابع يمثله أصحاب التوجه السلفي مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ولا شك أن هناك اختلافا في السمات والخصائص بين كل اتجاه من هذه الاتجاهات.

رابعا: تتمثل الوظيفة الأساسية لعلم الأخلاق في وضع قواعد حاكمة للسلوك الإنساني والحكم عليه إيجابا أو سلبا، وبيان الفضائل والحث عليها، ومعرفة الرذائل والتحذير منها، والغاية التي يتوخاها علم الأخلاق من ذلك كله هي تحقيق السعادة النفسية والطمأنينة القلبية للإنسان، وقد تباينت آراء أصحاب المدارس الفلسفية في تحديد المهمة الأساسية لعلم الأخلاق تبعا لاختلافهم في طبيعة المبادئ الخلقية نفسها، وهل هي مطلقة وثابتة أم أنها نسبية ومتغيرة، وثمة اتجاهان بارزان في هذا الصدد هما اتجاه المثاليين واتجاه الوضعيين.

خامسا: الأخلاق ليست كلها فطرية وليست كلها مكتسبة بل إنها تجمع ما بين النوعين، وقد دلت أحاديث كثيرة على هذا الأمر، وأشارت إلى أن من الأخلاق ما هو فطري، يتفاضل به الناس في أصل تكوينهم وخلقتهم.

سادسا: طبيعة الإنسان طبيعة مركبة أو مزدوجة، والمقصد من خلق الإنسان على هذه الهيئة هو تحقيق معنى الابتلاء والاختبار، حيث وضع الله أمام الإنسان طريق الخير والشر وأعطاه القدرة على الاختيار، وتدل آيات القرآن على وجود صفات مزدوجة في النفس البشرية يمكنه بها أن يرتقى إلى أعلى المراتب أو أن يهبط إلى أسفل سافلين.

سابعا: إذا كنا نقول إن طبيعة الإنسان مزدوجة ومهيئة للخير وللشر، فلا ينبغي أن ننسى أنها في أصلها أقرب للسلامة والاستقامة، ولو بقيت على ما هي عليه دون مؤثرات خارجية لسلكت الطريق القويم.

ثامنا: بوسع الإنسان أن يغير من أخلاقه، وأن يكتسب الخصال الحميدة ويبتعد عن الخصال السيئة والمذمومة، ولو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات، ولما كان للنصوص الشرعية الآمرة بتحسن الأخلاق من فائدة، بل لما كان هناك من مصلحة أصلا في إرسال الرسل والأنبياء لأقوامهم

تاسعا: تنقسم أفعال الإنسان إلى أفعال إرادية وغير إرادية وذات شبهين، فأما الأفعال الإرادية فهي خاضعة للحكم الخلقي، ومستحقة للوصف بالخير أو الشر، وأما الأفعال غير الإرادية فلا شك أنها غير خاضعة للحكم الخلقي، وليست من

موضوع علم الأخلاق، ولا يليق أن يحكم عليها بكونه خيرا أو شرا فضلا عن أن يحاسب عليه صاحبها لأنه لا إرادة له ولا اختيار في حدوثها، وأما القسم الثالث والأخير وهو الأفعال المترددة بين كونها إرادية أو غير إرادية فلا يسأل الإنسان فيها إلا عن القدر المتعلق بإرادته واختياره دون ما وقع بغير قصده.

هوامش البحث:

[١]- انظر محمد الغزالي: خلق المسلم ص١٠، ود. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص١٠٨.

[٢]- رواه أحمد في المسند (١٢٣٨٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٧١٩)

[٣]- رواه مسلم (١٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[٤]- رواه البخاري (٦٠١٦) من حديث أبي شريح ﷺ.

[٥]- انظر د. مقداد يلجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، دراسة مقارنة ص١١٨- ١٢١، ود. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص١٠٨، ١٠٩، ود. أبو اليزيد العجمي: الأخلاق بين العقل والنقل ص١٨٠، ١٨١، ١٩٨، ١٩٩، ود. أحمد جاد: محاضرات في علم الأخلاق ص١٣٩، ١٤٠.

[٦]- انظر محمد الغزالي: خلق المسلم ص٧ – ٩، ود. أبو اليزيد العجمي:الأخلاق بين العقل والنقل ص١٨١- ١٨٣، ود. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص١٠٩ – ١١١، ومصطفى العدوي: فقه الأخلاق ص١٦ – ١٨.

[٧]- رواه البخاري (٦٣٥) ومسلم (٦٠٢) من حديث أبي قتادة ﷺ.

[٨]- رواه البخاري (٢٠٧٦) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

[٩]- رواه مسلم (١٩٥٥) من حديث شداد بن أوس ﷺ.

[١٠]- د. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص١١١، ١١٢.

[١١]- انظر ابن فارس: معجم مقاييس اللغة ٢١٣/٢، ٢١٤، وابن منظور: لسان العرب ٨٥/١٠.

[١٢]- ابن منظور: لسان العرب ٨٥/١٠.

[١٣]- انظر الغزالي: إحياء علوم الدين ٥٣/٣، والزبيدي: تاج العروس ٣٣٥/٦، ود. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص١٠.

[١٤]- رواه البخاري (٢٧٠٠، ٤٢٥١) وأحمد (٧٧٢) والترمذي (٣٧٦٥) من حديث البراء بن عازب ﷺ.

[١٥]- رواه أحمد (٢٤٤٣٧) وابن حبان (٩٥٩) وأبو يعلى (٥٠٥٧) من حديث ابن مسعود ﷺ وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد ٤٥/٨، والألباني في إرواء الغليل (٧٤)

[١٦]- رواه مسلم (٢٥٦٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[١٧]- انظر د. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص١٢، ١٣، ود. أحمد جاد محاضرات في علم الأخلاق ص٨.

[١٨]- انظر د. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص١٢، ١٣، ود. أحمد جاد محاضرات في علم الأخلاق ص٨.

[١٩]- انظر عرضا لهذه الاتجاهات عند د. مقداد يلجن الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، دراسة مقارنة ص٤٣ – ٤٧، ود. الفاوي ص١٦٥ – ٢٠٨، ود. أبو اليزيد العجمي: ٢٢٨ – ٢٣٠.
[٢٠]- انظر د. مقداد يلجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، دراسة مقارنة ص٤٣ – ٤٥.
[٢١]- الغزالي: إحياء علوم الدين ٥٣/٣
[٢٢]- انظر كلام الغزالي في الإحياء٥٣/٣، وراجع تحليلا مهما له عند د.عبد الحميد مدكور وانظر أيضا د.عبد المقصود عبد الغني،ود.أحمد جاد:محاضرات في علم الأخلاق ص٨–١٠
[٢٣]- الغزالي: إحياء علوم الدين ٥٣/٣
[٢٤]- المصدر السابق ٥٣/٣
[٢٥]- انظر د. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص١٤، ود. عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي ص١٣.
[٢٦]- انظر د. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية ص٨٩، ١٢٧ و د. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص١٤، ود. أحمد جاد: محاضرات في علم الأخلاق ص٩.
[٢٧]- انظر د. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية ص١٢٧، ١٢٨.
[٢٨]- رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.
[٢٩]- رواه الدارقطني في الأفراد، والخطيب في تاريخ بغداد ٤٤٢/٦، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣١)
[٣٠]- انظر د. عبد المقصود عبد الغني، ود. أحمد جاد: محاضرات في علم الأخلاق ص٩، ١٠.
[٣١]- د. زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية ص٢٠، ٢١، مكتبة مصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٥ م.
[٣٢]- انظر موسوعة نضرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريم (ﷺ) ٦٣/١، ود. مصطفى حلمي:، ود. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص١٩.
[٣٣]- ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن ص٢١٧.
[٣٤]- المصدر السابق ص٢١٧.
[٣٥]- انظر د. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية ص٨٩، د. عبد المقصود عبد الغني الأخلاق بين فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام ص١٥، ود. عمر يوسف حمزة: أصول الخلاق في القرآن الكريم ص٢٣.
[٣٦]- رواه البزار وابن عدي في الكامل ١٦٣/٢ من حديث أبي هريرة ﷺ، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٤٧٩/١٠) رجاله رجال الصحيح، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٢٧٥)
[٣٧]- انظر تفسير الألوسي ٢٠٠/١٨ وجامع العلوم والحكم ص١٦٣.
[٣٨]- انظر ابن القيم: الوابل الصيب ص٣٠.
[٣٩]- الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٤١/١٩.
[٤٠]- انظر د. عبد المقصود عبد الغني: الأخلاق بين الفلسفة والإسلام ص١٣.
[٤١]- المصدر السابق ص١٣.
[٤٢]- انظر د. أبو اليزيد العجمي:الأخلاق بين العقل والنقل ص١٧.
[٤٣]- انظر د. عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ص٢٠٢.
[٤٤]- المصدر السابق ص٢٠٢.
[٤٥]- انظر نماذج من هذه التعريفات عند حاجي خليفة: كشف الظنون ٣٥/١، دار إحياء التراث العربي، وأحمد أمين: كتاب الأخلاق ص١، ود.عبد المنعم الحفني: المعجم الفلسفي ص١٣،

ود. إمام عبد الفتاح إمام: فلسفة الأخلاق ص٥- ١٠، وفيما يخص تعريفات الفلاسفة الغربيين انظر د. عبد الرحمن بدوي:الأخلاق النظرية ص٧- ٢٣، والموسوعة الفلسفية المختصرة إشراف ومراجعة د. زكي نجيب محمود ص١٨- ٣٠.

[٤٦]- انظر د. عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق ص٢٠٢، ٢٠٣

[٤٧]- انظر د. عبد الرحمن بدوي:الأخلاق النظرية ص٨.

[٤٨]- انظر د. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص٢٨.

[٤٩]- أحمد أمين: كتاب الأخلاق ص١.

[٥٠]- د. عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق، وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، ص٢٠٤.

[٥١]- د. عبد المقصود عبد الغني: الأخلاق بين فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام ص١٢.

[٥٢]- د. أبو اليزيد العجمي: الأخلاق بين العقل والنقل ص٢١، وقارن هذا التعريف بالتعريف الذي قدمه د. مقداد يلجن في كتابه الاتجاه الأخلاقي في الإسلام ص٤٧، وانظر أيضا موسوعة نضرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريم (ﷺ) ٦٦/١، ود. عبد الفتاح الفاوي: في الأخلاق ص١٧، ١٨.

[٥٣]- انظر د. أبو اليزيد العجمي: الأخلاق بين العقل والنقل ص٢١.

[٥٤]- انظر د. توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية، نشأتها وتطورها ص١٧، ود. أبو اليزيد العجمي:الأخلاق بين العقل والنقل ص٢٦.

[٥٥]- انظر د. عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق، وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ص٢٠٤، ود. مقداد يلجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، دراسة مقارنة ص٥٦ – ٥٧.

[٥٦]- انظر في الكلام عن هذين الاتجاهين تفصيلا: د.توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية، نشأتها وتطورها ص١٦٥ – ١٧٥، ٢٤٢، ٢٩٦ – ٢٩٨، ود. زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية ص٦٠- ٧٧، ود. عبد الرحمن بدوي:الأخلاق النظرية ص٣٩ – ٤٧، و د. عبد المقصود عبد الغني الأخلاق بين فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام ص٤٥- ٥٢، ود. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلاسفة وعلماء الإسلام ص٦ – ٨، ود. عبد الفتاح الفاوي: في الأخلاق ص٢٨ – ٣٥، ود. إمام عبد الفتاح إمام: فلسفة الأخلاق ص٤٤- ٥٦، ود. فيصل بدير عون: دراسات في الفلسفة الخلقية ص٧- ١٠، ود. أحمد جاد: محاضرات في علم الأخلاق ص١٤- ٤٠.

[٥٧]- انظر د.توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية، نشأتها وتطورها ص١٧.

[٥٨]- وانظر مناقشة ونقد لآراء هذا الاتجاه عند د. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية ١٠٢- ١١٠، و د. توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية، نشأتها وتطورها ص١٣ – ١٥، ٢٦١- ٢٦٨، ود. زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية ص٦٧ – ٧٥، ود. عبد المقصود عبد الغني الأخلاق بين فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام ص٤٩- ٥٢، ود. إمام عبد الفتاح إمام: فلسفة الأخلاق ص٤٨ – ٥٥.

[٥٩]- انظر أحمد أمين: كتاب الأخلاق ص١، ٢، ود. عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق، وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ص٢٠٤، ود. عبد المقصود عبد الغني: الأخلاق بين فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام ص٣٦ – ٣٨، ود. محيي الدين الصافي ومجموعة مولفين آخرين: في العقيدة الإسلامية والأخلاق ص٢٧٨- ٢٨١، ود. أبو اليزيد العجمي:الأخلاق بين العقل والنقل ص٢٨، ٢٩.

[٦٠]- انظر ابن القيم:الفوائد ص١٨، ١٩،وطريق الهجرتين ص٢٨٤، ٢٨٥،ومفتاح دار السعادة ٥٦/١، ٥٧.

[٦١]- انظر ابن القيم: طريق الهجرتين ص٢٨٧، ٢٨٨.

[٦٢]- رواه مسلم (١٩٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[٦٣]- رواه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم ﷺ.

[٦٤]- انظر مسكويه: تهذيب الأخلاق ص٣٠، ود. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية ص٩٠، ٩١، ود. عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق، وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ص٢٠٦ – ٢٠٩، ود. عبد الفتاح الفاوي: في الأخلاق ص١٩، ود. أبو اليزيد العجمي: الأخلاق بين العقل والنقل ص٢٥، ٢٦.

[٦٥]- انظر مسكويه: تهذيب الأخلاق ص٣٠ ود. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية ص٩٢، ود. عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق، وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ص٢٠٦ – ٢٠٩

[٦٦]- انظر الميداني: مجمع الأمثال ٤٤٦/١، والأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف ٤٥٢/١.

[٦٧]- انظر أحمد قبش: معجم الحكم والأمثال باب اللئيم والدنيء ص٤٤٢.

[٦٨]- انظر ابن حمدون: التذكرة الحمدونية ٣٢٦/٢.

[٦٩]- انظر ابن القيم: مدارج السالكين ٣١٥/٢.

[٧٠]- انظر كتاب الأخلاق في الإسلام ص٨– ١٠.

[٧١]- رواه البخاري (٣٣٨٣) ومسلم (٢٥٢٦) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[٧٢]- رواه البخاري (٢٤٨٨) ومسلم (٢٣٠) من حديث حذيفة ﷺ.

[٧٣]- رواه مسلم (٢٥) وأبو داود (٥٢٢٥) من حديث ابن عباس ﷺ.

[٧٤]- أبو نعيم: معرفة الصحابة ٣٣/١، وابن عساكر: تاريخ دمشق ٣٣٣/٣٠.

[٧٥]- رواه البخاري (٣) ومسلم (٢٥٢) من حديث عائشة ﷺ.

[٧٦]- رواه أبو يعلى في مسنده (٤٧٥٤) من حديث عائشة ﷺ وضعف إسناده الهيثمي في مجمع الزوائد للهيثمي ٣٧/٦، وحسين سليم أسد في تحقيقه لمسند أبي يعلى (٤٧٥٤)

[٧٧]- انظر كتاب الأخلاق في الإسلام ص١١، ود. عبد المقصود عبد الغني: الفلسفة الخلقية في الإسلام ص١٦٥ – ١٦٩، ود. أبو اليزيد العجمي:الأخلاق بين العقل والنقل ص٢٤، ٢٥.

[٧٨]- انظر د. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية ص٩٢، ود. عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق، وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع ص، د. مقداد يلجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، دراسة مقارنة ص١٧٥ – ١٨٣.

[٧٩]- انظر د. مقداد يلجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، دراسة مقارنة ص١٨١.

[٨٠]- انظر د. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية ص٩٢.

[٨١]- انظر في العقيدة الإسلامية مدخل ودراسة ص٨٣، وللكلام تفصيلا عن دليل الفطرة انظر ابن تيمية: درء التعارض ٤٥٨/٨، وابن القيم: الروح ص١٦٨، وشفاء العليل ص٢٨٣، وحافظ أحمد حكمي: معارج القبول ٢٩/١ – ٣٤، ٤٣، والسيد سابق: العقائد الإسلامية ص٤٣، ود٠ عبد المجيد النجار: الإيمان بالله وأثره في الحياة ص٣٣– ٤٤، ود٠ عمر الأشقر: العقيدة في الله ص٦٩ – ٧٢.

[٨٢]- رواه البخاري (١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩)،ومسلم (٢٦٥٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[٨٣]- رواه مسلم (٢٨٦٥)، وأحمد (١٧٠٣٠، ١٧٨٧٤) من حديث عياض بن حمار المجاشعي ﷺ، ومعنى اجتالتهم أي استخفوهم، فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل، انظر شرح النووي على صحيح مسلم ١٩٧/١٧ ٠

[٨٤]- انظر الغزالي: إحياء علوم الدين ٥٥/٣

[٨٥]- انظر في استعراض حجج هذا الفريق والرد عليها: الغزالي: إحياء علوم الدين ٥٥/٣، ود. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية ص٩٠ – ١٠٠.

[٨٦]- انظر الغزالي: إحياء علوم الدين ٥٥/٣.

[٨٧]- رواه البخاري (١٤٦٩) ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

[٨٨]- رواه الدارقطني في الأفراد، والخطيب في تاريخ بغداد ٤٤٢/٦، وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٣١)

[٨٩]- رواه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

[٩٠]- انظر د. سيد حسين: صلاح الأمة في علو الهمة ٢١٩/٥، ٢٢٠.

[٩١]- انظر ابن القيم: مدارج السالكين ٣١٥/٢.

[٩٢]- رواه أحمد في مسنده (٨٩٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٣٤٩)

[٩٣]- رواه أحمد في مسنده (٢٤٦٠١) من حديث عائشة ﷺ، وصححه شعيب الأرنؤوط.

[٩٤]- رواه أحمد في مسنده (١٢٠٤٨) و الترمذي (٢٠١٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند (١٢٠٤٨)

[٩٥]- رواه أحمد (٢١٣٥٤) والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر ﷺ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٩٧)

[٩٦]- رواه الترمذي (٢٠١٨) من حديث أبي ثعلبة الخشني ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٥٣٥)

[٩٧]- رواه أحمد (٢٧٥١٧) والترمذي (٢٠٠٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٧٦)

[٩٨]- رواه أبو داود (٤٧٩٨) من حديث عائشة ﷺ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٦٢٠)

[٩٩]- رواه أحمد (٧٩٠٧) وابن ماجه (٤٢٤٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه للمسند.

[١٠٠]- رواه أبو داود (٤٨٠٠) من حديث أبي أمامة ﷺ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١٤٦٤)

[١٠١]- رواه الحاكم (٤٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٦٤٨٤)

[١٠٢]- رواه البخاري (٣) ومسلم (٢٥٢) من حديث عائشة ﷺ.

[١٠٣]- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٢٤/١.

[١٠٤]- انظر مصطفى العدوي: فقه الأخلاق والمعاملات مع المؤمنين ص١٣.

[١٠٥]- رواه البخاري (١٩٤٥) ومسلم (٣٥٥) من حديث ابن عباس ﷺ.

[١٠٦]- رواه مسلم (٢٨٥) من حديث أنس ﷺ

[١٠٧]- انظر د. عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق، وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، ص٢٠٤، وأحمد أمين: كتاب الأخلاق ص٢، د. زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية ص١٧ – ١٩، ود. عبد المقصود عبد الغني: الأخلاق بين فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام ص١٦، ١٧، ود. فيصل بدير عون: دراسات في الفلسفة الخلقية ص٧، ود. إمام عبد الفتاح إمام: فلسفة الأخلاق ص١٤ – ١٩، ود. أحمد جاد محاضرات في علم الأخلاق ص٤٥ – ٤٩.

[١٠٨]- انظر أحمد أمين: كتاب الأخلاق ص٢ – ٤، ود. محمد عبد الله دراز: دراسات إسلامية ص٨٩، و د. محيي الدين الصافي ومجموعة مولفين آخرين: في العقيدة الإسلامية والأخلاق ص٢٧٥– ٢٧٨، ود. عبد المقصود عبد الغني: الأخلاق بين فلاسفة اليونان وحكماء الإسلام ص١٧، ١٨.

[١٠٩]- انظر أحمد أمين: كتاب الأخلاق ص٣، ٤، ود. محيي الدين الصافي ومجموعة مولفين آخرين: في العقيدة الإسلامية والأخلاق ص٢٧٧، ٢٧٨، ود. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق ص٤.

[١١٠]- انظر أحمد أمين: كتاب الأخلاق ص٣، ٤، ود. محيي الدين الصافي ومجموعة مولفين آخرين: في العقيدة الإسلامية والأخلاق ص٢٧٧، ٢٧٨.

[١١١]- رواه البخاري (٢٣٦٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

[١١٢]- انظر ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ٥٢٠/١٠.

[١١٣]- ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ص١٤٥، ١٤٦.

قائمة المصادر والمراجع[١١٣]

- الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ.
- د. أبو اليزيد العجمي:الأخلاق بين العقل والنقل، دار السلام للنشر والتوزيع.
- أحمد أمين: كتاب الأخلاق، الطبعة الثانية، ١٩٢١ م.
- أحمد قوشتي: في العقيدة الإسلامية مدخل ودراسة، دار الهاني للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥ م.
- د. أحمد محمود صبحي: الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.
- د. إمام عبد الفتاح إمام: فلسفة الأخلاق، دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- د. توفيق الطويل: الفلسفة الخلقية، نشأتها وتطورها، دار النهضة العربية، الطبعة الثالثة، ١٩٦٧م.
- ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل، تحقيق د.محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى،١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- حاجي خليفة: كشف الظنون، دار إحياء التراث العربي، ١٩٤١م.
- ابن رجب: جامع العلوم والحكم، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ه.
- د. زكريا إبراهيم: المشكلة الخلقية، مكتبة مصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٥ م.
- د. سيد حسين العفاني: صلاح الأمة في علو الهمة، مؤسسة الرسالة – دار العفاني، ١٤١٧ه.
- السيد سابق: العقائد الإسلامية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- د. عبد الحميد مدكور: دراسات في علم الأخلاق، دار الهاني، القاهرة، ٢٠٠٥م.

- د. عبد الحي قابيل: المذاهب الأخلاقية في الإسلام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ١٩٨٤ م.
- د. عبد الرحمن بدوي: الأخلاق النظرية، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.
- د. عبد الرحمن بيصار: العقيدة والأخلاق وأثرهما في حياة الفرد والمجتمع، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠.
- د. عبد الفتاح الفاوي: الأخلاق دراسة فلسفية، دار الثقافة العربية، الطبعة الثانية.
- د٠ عبد المجيد النجار: الإيمان بالله وأثره في الحياة، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- د. عبد المقصود عبد الغني: الأخلاق بين الفلسفة والإسلام، مكتبة الزهراء، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ.
- د. عمر يوسف حمزة: أصول الأخلاق في القرآن الكريم ، دار الخليج، ٢٠٠٠م.
- الغزالي أبو حامد: إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، وطبعة دار إحياء الكتب العربية بدون تاريخ.
- ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
- د.فيصل بدير عون: دراسات في الفلسفة الخلقية، بدون تاريخ.
- ابن القيم: حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، مطبعة الحلبي، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م. ابن القيم: مدارج السالكين، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة،١٤١٦هـ-١٩٩٦م. ابن القيم: التبيان في أقسام القرآن، تحقيق محمد حامد الفقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- مجموعة مؤلفين: موسوعة نضرة النعيم في مكارم وأخلاق الرسول الكريم- ﷺ - دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة الرابعة.
- د. محمد عبد الله دراز: دستور الأخلاق في القرآن الكريم، تعريب وتحقيق وتعليق د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، الطبعة السادسة، ١٤٠٥ ه – ١٩٨٥ م.
- د. محمد عفيفي: النظرية الخلقية عند ابن تيمية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ه – ١٩٨٨م.
- محمد الغزالي: خلق المسلم ، دار نهضة مصر، الطبعة الأولى.
- د. محمد يوسف موسى: فلسفة الأخلاق في الإسلام، مؤسسة الخانجي، ١٩٦٣م.
- ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح، ١٣٧٨ه – ١٩٥٩ م.
- د. مصطفى حلمي: الأخلاق بين الفلسفة وعلماء الإسلام، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤١٤ ه – ١٩٩٣م.
- مصطفى العدوي: فقه الأخلاق والمعاملات مع المؤمنين، دار ابن رجب، الأولى، ١٤١٨ – ١٩٩٨ م.
- د. مقداد يلجن: الاتجاه الأخلاقي في الإسلام، دراسة مقارنة، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٧٣.
- الميداني: مجمع الأمثال، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة- بيروت، لبنان.
- ابن منظور: لسان العرب دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ.